JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد السابع
٢٠٢٢م /١٤٤٣هـ
العدد السابع
(٨٧)- (١٠٦)

التنوع القصصي في كتاب الحيوان للجاحظ

م.د. هديل علي كاظم
جامعة واسط – كلية التربية للعلوم الإنسانية
hadel@uowasit.edu.iq

الملخص:

يعتني البحث فيما يسرده الجاحظ من قصص في كتابه (الحيوان)، قصص يأخذها من التراث، فتكون فيه الدراسة عن استخراج الأسطورة، والخرافة، كما يسرده الجاحظ عن التشابه مابين الإنسان والحيوان وتلك الطباع والتميز فيما بينهما ونقاط التلاقي في فنية الجاحظ بأسلوبه، نرى تنوعا في ذلك، ونعطي لهذا التنوع القصصي مختصرات، متمثلة بقصص من كتاب الحيوان، مع ما يلقي عليها من إبداعه القصصي.

يعطي البحث وضوحا لسابقة للجاحظ من خلال توظيفه لنوع التراث، الذي سبق الغرب في توظيف التراث في الأدب، كما أنّه يضع الجاحظ في مستوى يسبق الكثيرين ممن عرفوا بالقصة الشارحة، ويهتم بوضع تعريف مختصر لها,وإخراج قصص المكان والزمان من كتاب الحيوان وكيف استفاد منها الجاحظ في توظيف القصة وهو يسرد لنا عن الحيوانات ويصف لنا تلك او هذه، وهذا ما جعل التنوع الوصفي في كتاب الحيوان أول مدخل فيه مع أنه بدأ بمفاتيح قصصية قد لايتمكن منها القاصون الان ولا كُتّاب الرواية، لذا لايخلوا هذا البحث من مصطلحات تلامس الجديد ولعلها بداية لدراسة او نقد تفتح الأبواب على نوع يخص تراثنا الخالد.

من الجدير أن نرى جديدا في التراث، كما نرى التراث تنطبق عليه معايير الحداثة، ويفتح الكتاب في عالمنا الجديد الذي يرى الاختصار شيئا لايمكن ان نتعداه، وكان الجاحظ جزءاً من ذلك الشيء وربما كان على وعي تام في ذلك وهذا مانلمسه في البحث .

الكلمات المفتاحية : التنوع القصصي ، كتاب الحيوان للجاحظ، السرد القصصي.

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد السابع
٢٠٢٢م/١٤٤٣هـ

Narrative diversity in Al-Jahiz's Animal Book

Researcher: Dr.
Hadeel Ali Kadhim Al-Shawi
Wasit University- College of Education for Human Sciences
Department of Arabic Language
hadel@uowasit.edu.iq

Summary

The research is concerned with the stories narrated by the protruding in his book (Animal), stories he takes from the heritage, in which the study is about the extraction of myth, superstition, as the al-Ja'ath recounts the similarity between man and animal and those characters and the distinction between their son and the points of convergence, in the art of the protruding in his style, we see a diversity in it, and we give this diversity of stories abbreviations, represented by stories from the animal book, with what he casts from his storytelling creativity.

The research gives clarity to the precedent of AL JAHITH by employing the type of heritage, which preceded the West in employing heritage in literature, as it puts the protruding at a level ahead of many who knew the story, and is interested in a summary of its definition, and directed from the animal book those stories.

The place and time and how Al-JAHITH benefited from it in employing the story and he tells us about animals and describes those or these, and this is what made the descriptive diversity in the book of animal the first entrance in it although it began with the keys of stories that the storytellers may not be able to now or the book of the novel, so this research does not give up the terms touching the new and perhaps the beginning of study or criticism opens the doors to a kind that belongs to our eternal heritage.

It is new to see new in heritage, as we see heritage to which the standards of modernity apply, and opens the book in our new world, which sees the abbreviation as something we cannot go beyond, and the protruding was part of that thing or maybe was fully aware of that and this is what we see in the research.

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد السابع
٢٠٢٢م/١٤٤٣هـ

Keywords: story diversity, Al-Jahiz's animal book, storytelling.

المقدمة

العربية التي يراها بعينيه الجاحظتين أكبر من العالم بأسره، بل إنّه لا يرى للعالم أي أدب يضاهي العربية، لربما في رأي طه حسين أنَّ الجاحظ في إكباره هذا للعربية على خطأ أو أنّه لم ينظر للعلوم الأدبية في الأممالأخرى(حسين، ٢٠١٣: ٢١-٢٢)، لكن الجاحظ يبعد النظر أنَّ القرآن الكريم اختار تلك اللغة وأنّ الحياة للعربية من دون اللغات، وأنَّ الجمال لايمكن أن يكمن إلّا بتلك البلاغة وبذلك البيان، فتحسسها بمعانيها الواسعة ورقتها وليونتها وعذوبة مخارج أصواتها، لذا نرى أنَّ الجاحظ مع انفراد اللون اللفظي لمفردة الحيوان من حيث إنّ رؤية عنوان الكتاب توحي إلى اختصاره في المفردة، نجد أنّه مشبع بالدراسة اللغوية والنحوية والتفسيرية والمزج بين جمالية لغة الإنسان وأصوات الحيوان، بين تغريدة البلبل وصوت الصهيل وهدير الحمام واللغة العربية، لا أظن أنّ الجاحظ عاشق للغة العربية، بل أنه غارق فيها ومستمتع الى حد نشوة السكران، لكنه ليس فاقد عقله بقدر انه يسكر بالنشوى ويستمتع بجمال اللغة في ميزان عقله .

الصياغة التي صنع فيها عقداً جميلاً من اللؤلؤ والمجوهرات التي زانت جيد العربية بنقل تراث كبير جدا من الأدب، فيما يخص العرب، وما يقارن بها من الأمم في كتاب الحيوان، يحق لنا أن نفتخر به، لأنَّ الجاحظ حماه من الضياع وترك لنا إرثاً يشبه ما يتشدق به التطور من لسان جديد ودعوة لصياغة جديدة، نراه لاينطبق الا على هذه العتبة، عتبة العنوان فتتوهج مابين دفتيه سبعة أجزاء، فيها من التنوع القصصي ما يجعله حديقة غناء،والقارئ كالنحل لايمكن أن ينفد رحيقها ولا طيب شذاها فيأخذ ما يصنع منه شفاء لمن يبحث عن القصص التراثية والخرافة بجمال البيان ورصانة العبارة وجرس اللفظة.

سنتناول في دراستنا لهذه القيمة الفنية التنوع في السرد القصصي للجاحظ، مع دراسة ونبذة عن مكانته العلمية مدخلا للتنوع وشرحا مع ذلك في موقعه من العلوم العربية، لنبين في الدراسة القصص في كتاب الحيوان، ومدى أسلوب سرد الجاحظ فيه، والمصطلحات الجديدة، كمفاتيح القصة، والقصة الشارحة، وتنوع الوصف، والحكاية والزمان، والمكان، وعرض قصص نختارها عينة من كتاب الحيوان نحاول فيها ان نختار عشوائيا لان الكتاب ضخم، والقصص كلها ممتعة وجميلة وجذابة وهادفة، لذا اخترنا ما يمكن أن تكون قصيرة حتى يتسنى للقارئ الأخذ ولو نظرة عن كتاب الحيوان الذي لربما يظن من لم يطلع عليه أن يخص الحيوان دون غيره، وربما يتعجب ان يجد في البلاغة والبيان، والشعر،

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد السابع
٢٠٢٢م /١٤٤٣هـ

والنثر ، والقصص، والأمثال، والحكم، والجمل القصار ، والموعظة إضافة الى الأسطورة والخرافة والتراث وهذا ما سنبينه، وندعو من الله التوفيق، ومن القرّاء الأفاضل غفران الزلة والقصور .

الجاحظ وعلوم العربية

شغل الجاحظ مساحات واسعة من الأدب العربي، حتى يعد في بعض الدراسات مؤسساً لكثير من فنون العربية، ومن طليعة المؤسسين في بعضها، فهو لم يترك فنّاً – بالتقريب – إلّا وكتب فيه وأبدع، حتى الدين واتخاذه مذهب الاعتزال كان مضيفا لا مضافا لمذهبه، ولا يمكن لباحث لملمة دراسة الجاحظ، بكتاب او يلم شموليته بأجزاء ، لان كتبه كثيرة وأراءه أوسع، ومن جميل مؤلفاته (كتاب الحيوان) الذي درس فيه قصص الحيوانات وأشعار العرب وطبائع الحيوان ومما يكتسب منه، ويستفاد، ولا يخلو الكتاب من قصص الفكاهة والسخرية والرمزية، إلا أنّ فيه خاصية التنوع تبرز حتى في نفس الحيوان، فحين يتكلم عن النمل يعطينا أكثر من نوع وأكثر من تنوع قصصي وينقلك لرحاب أوسع ومعلومات تتسع فائدتها باتساع الموضوع.

انتقال القصة عند الجاحظ من أسلوب إلى آخر ، ومن حبكة لأخرى جعل كتاباته حية قابلة للدراسة، وليس كتاب الحيوان وحده، بل جميع كتبه زاخرة بالقصص، مميزة بالتنوع، مع هذا التنوع لا يجعل القصص مفككة عن بعضها في إتيان الهدف، فهدف الكتاب خيط المسبحة وقصصه حباتها التي تتشابه في تكوينها وتختلف في عددها ومكانتها، وخصوصيتها، فالجاحظ مبدع أديب راوٍ مطلّع على أسس الكتابة والبلاغة فهو لا يمكن أن يحتاج للنظر في أدبيات أخرى لسعة اطلاعه، ولرجاحة عقله ولعل البيان والتبين هو معيل للأدباء وليس عائلاً، وهذا دليل على منهجه الأدبي ودرايته البلاغية والنحوية.

مجلة العلوم الاساسية

لا يمكن فرز التنوع على أنّها صورة القصة من جهات التكوين، بل جمال الحدث والحبكة على نوع ينطلق فيه التنوع،فهو ينقل الخبر قصة ويكتب أسلوب قصة ويضع النوع ويصنع له التنوع في أكثر من قصة ويعتبر شاهده نوع آخر من القصص كمثال الغنم والذئب في موضوع جبن الحيوانات(الجاحظ، ١٩٦٩٩: ٦/٣٧٥-٣٧٧) فأسلوبه مع إنّه لم يذكر قصة واقعية عنه إلّا إنّه في سرده حول الانقياد والجبن وتنوع ذلك يشير إلى أسلوبه القصصي الرائع الذي يجذب القارئ إلى الكتاب .

عاصر الجاحظ ظهور النثر إلى القمة بعدما كانت العرب تحتفل بالشعر، وبالأحرى بعدما كان الشعر مهيمن على الذهن العربي، فقد أزاح النثر طريق الشعر من صدر الإسلام وعلو القرآن الكريم في أفق العلم وجمال التعبير، فقد كان قبل الإسلام (لا يعتبر لغو الحديث نثرا،لأنه لا يجسد مقدارا هاما

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد السابع
٢٠٢٢م/١٤٤٣هـ

من حالة الإنسان، بل هو أصوات لها دلالاتها العفوية، اليومية، المسطحة للحياة، بينما النثر الفني هو التعبير عن أغوارها، وافاقها، ومداها، من هنا تأخر النثر في الظهور عن الشعر لاقتضائه استقرارا وثقافة، وتعبيرا عن الشهود الواعي في الزمان والاستفادة الكثيفة من المكان) (شلق، ١٩٧٤: ٣٧) التي جاءت لتطوي الشعر متمثلة بالقرآن الكريم ثم تنطلق إلى أغوار الإنسان ليعبر عنها الجاحظ بأسلوبه الحي، في موضع يثير به شيئا جديدا من التنوع على خارطة تختلف عن خارطة مسير الانسان، مع اشتراكه فيها، هذا التنوع الحيواني والرابط بينهما وبين الإنسان وفي بعضها يضع الجاحظ معيارا خاصا لتنوعه بين حيوان وآخر كأنه يصيغه بأُمّةٍ واحدة وينطلق منها لتنوع يرمز لكل فئة قصة تتوج بالمتعة والجمال وروح الدعابة، والجميع تحت هدف يريد به إشارة إلى سلوك إنساني متعثر تعداه الحيوان بالأفضلية أو إلى جياد النفس وتطابقها مع الحيوان كالقوة والذكاء والرفعة والشجاعة، مع معالجة اللغة التي حفظها بهذا الكتاب اذ لولا كتابه لميّعت مفردات كثيرة من اللغة، بل ربما تجاوزها إلى الضياع.

في علاقة يرسمها الجاحظ بين الإنسان والحيوان، علاقة اللغة والتاريخ ورقعة المكان، والطباع، والذات المنحسرة تحت قوى الجسم يمكن ان نرسم فكرة عن تنوعه في هذه القصص منطلقا من توحيد الهدف الذي يسير عليه، فهو في كتابه البخلاء حاول أن يصيغ جزءا من تنوع البشري الإقليمي والعربي من حيث إن (وجود شيء من التنوع بين المجتمعات البشرية أمر جوهري لتوفير حافز ومادة "الأوديسية" الروح البشرية،إنَّ الأمم الأخرى ذات العادات المغايرة ليست أعداء بل هبات من الله، فالناس يتطلبون في جيرانهم قرابة تكفي للفهم واختلافا يكفي لإثارة الانتباه، وجلالا يكفي ليبعث الإعجاب) (شرف، ١٩٩١: ٧) فيعطي للكاتب تنوعا يستطيع أن يصل الى إصلاح او تقويم، بقدر ما، تلك الترهلات الاجتماعية التي تحدث في مجتمع ما من دون غيره، فدراسة طباع البخلاء للجاحظ، لا تنفرد عن دراسته للحيوان وارتباط أقوال العرب وقصصهم وأشعارهم فيها، ورجاحة عقلية الجاحظ الأدبية هي التي جعلت النقاد يصفونه من أربعة أساطين العلم في العصر العباسي التي قامت العلوم الأدبية عليها (وآل الأمر بعد نضج علم الأدب في العصر العباسي إلى أربعة هم أركانه وأعمدته دونوا علمهم في كتب شهيرة هي :

1. كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة
2. كتاب الكامل للمبرد
3. كتاب البيان والتبيين للجاحظ
4. كتاب النوادر للقالي

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد السابع
٢٠٢٢م /١٤٤٣هـ

وهذه الكتب هي مصادر علم الأدب إلى الآن، وأكثر ما أُلِّف بعدها هي نقل عنها)(زيدان، ٢٠١٢: ٩٧/٣) وكتاب الحيوان عبارة عن قصص ومعارف أدبية عربية وعالمية في آن واحد وقد ميزه الجاحظ عن بقية كتبه بمقدمة تفسِّر جميع مؤلفاته التي سبقت كتاب الحيوان،لما أنّه يراه جدير بالقراءة والعلم وتاريخ .

كتاب الحيوان

قد ذكر محقق الكتاب د. عبد السلام محمد هارون ما للكتاب من تصحيف وتحريف كمخطوطة، وأنه اجتهد فيه حتى جمعه، وقد صاغ عبارة لطيفة حول الجاحظ والكتاب معا وهي تشمل كذلك جميع مؤلفات الجاحظ : (والذي يقرأ للجاحظ يرى فيه طبيعة التكرار ، وهو يحرص بذلك على تثبيت ما يريد القارئ على وعيه وفهمه، فالجاحظ معلم حريص على إفادة تلميذه، ولكن تلميذه لا يجلس بين يديه،أو يسايره ليتلقى عنه المعرفة، بل يؤلف له أستاذه الكتاب جامعا ويدعه يفيد مما يقرأ ويتفهم،وللجاحظ كلام في هذا المعنى بالجزء الأول من الحيوان) (الجاحظ، ١٩٦٩٩: ٣١/١)مع أن المحقق مدرك الاستفادة لكنه استشعر بالتلمذة التي أعطاها له معلمه في إدراك أن الجاحظ قد أطال التفسير في الجزء الأول من الحيوان عن مؤلفاته مدافعا عنها وداحضاً آراء المذاهب الفلسفية والأدبية والبلاغية والكلامية والقصصية بما نقله عن العرب، والكتاب بأجزائه السبعة، لا يمكن أن يصنف بذات العنوان، إذ إنه (يوهم اسمه أنه خصص بالحيوان وما يمت إليه بسبب ولكن الحق ان الكتاب معلمة واسعة، وصورة ظاهرة لثقافة العصر العباسي المتشعبة الأطراف) (الجاحظ، ١٩٦٩٩: ٣١/١) ويعتبر كتاب الحيوان (أقدم كتاب في علم الحيوان بالعربية، ويختلف عن كتب الحيوان المعروفة بأنه يشمل على وصف طبائع الحيوانات من حيث علاقتها بالناس ويتخلل ذلك فوائد أدبية واجتماعية وتاريخية) (زيدان، ٢٠١٢: ٥٧٢) مع ان د. عبد السلام هارون قد ذكر أن هناك محاولات قبله وان اعترف بان الجاحظ أول من ألف كتابا جامعا شاملا للحيوان إلا أنه أردف بعض المحاولات ككتب الإبل للسجستاني، والاصمعي ولأبي عبيدة والنضر بن شميل، وكتب الخيل وكتب الغنم والشاء وكتب الوحوش، وكتب الطير، وكتب البازي والحمام والحيات والعقارب، وكتب الفرس، وكتابي النحل والحشرات(حمودة، ٢٠٠١: ١٨٤).

لعل أبرز ما يصلنا من التراث هو جسر بين الحداثة التي يستلهمها الكتاب من العالمية وبالتحديد من الغرب والتراث الذي يثري أدبنا، وكتاب الحيوان لا ينفصل من هذا الخط ولعله الأقرب الذي (يقوم على أنّ تراثنا العربي من الثراء والتنوع، بل المعاصرة)التي تغني الساحة العربية بأجمل القصص، بما

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد السابع
٢٠٢٢م /١٤٤٣هـ

تحمل القصة من حداثة يمكن ان تصاغ عليها تلك القصص، بل إنَّ أسلوب الجاحظ في اختيار ما ينقله بأسلوبه الأدبي الرفيع ينطبق على تلك المعايير، إذ لم نقل يتفوق عليه أسلوبا وفكاها وتشوقا وجمالا ولغة.

التنوع القصصي

يرى النقاد أنَّ القصص تتنوع حسب تنوع المجتمعات، وأنَّ الكاتب هو من يجمع تلك المجتمعات بانفراد وبخيط واحد، حتى نظر بعضهم أنَّ الوحدة لا تصدر إلّا من التنوع، فالعرب على سعة مواطنهم تنوعوا بالتقاليد والأعراف والأجناس وارتبطوا بالوحدة والتاريخ كما فسره الدكتور عبد العزيز شرف: (ومن ذلك يتضح أن " التنوع " في الأدب العربي هو إطار " الوحدة " وليس هناك مجال لإحياء النزاعات الإقليمية المفتعلة لأنَّ التنوع يؤدي في نهاية الأمر إلى تحقيق المفهوم العلمي للوحدة كما يكسبها دعما وإثراء في إطار وحدة الثقافة العربية التي تفاعلت فيها مصادرها وتعاونت عواملها وتكاملت أركانها)(شرف، ١٩٩١: ٢٠) إذ يظهر التنوع من رحم المجتمع بينما يرى أدباء أن التنوع القصصي يدخل بإطار أخر في الأسلوب كما أشارت كه يلان محمد حول قصص أسمهان الشعبوني بأن(أسلوبها هو التنوع بين الواقعية و العجائبية والاستشراف العلمي)(محمد، ٢٠٢١: بلا)في وضع القصة بين تنوع أسلوبها، وثمة تنوع في الثقافة من خلال القصص والبيئة وتنوع في شخصيات القصة نفسها بين شخصية وأخرى تنوعها الثقافي والبيئي(البسام، ٢٠١٥: ٢٢١-٢٤١) ويمكن أن نجد القيمة للتنوع لا تنحصر في ذاتية الشخصية او البيئة، او التراث، لان القاص ينهل من جميع المشارب بتنوعه القصصي كما عبر عنه الكاتب فارس سعد الدين السردار حول قصص (أزهار العرب)بمحتوى ذلك التنوع في المجموعة (فقد نهلت المجموعة من مستويات ومشارب شتى، كان أولها التراث العربي الذي هو بحد ذاته لم يجتمع إلا من مساحة واسعة ومتنوعة جغرافيا وبيئيا واجتماعيا، إضافة إلى التراث الشعبي الغني بالعبرة ... شملت الحكاية الأسطورة والحكاية الخرافية وحكاية الحيوان) (السردار، ٢٠٢٠: بلا) (٤)فإذا كانت هذه المجموعة ترمز لهكذا في كيف فيما سطره الجاحظ من تنوع بيئي وجغرافي وإنساني وثقافي، ولاسيما في العصر العباسي الذي اجتمعت فيه الأمم وتلاقحت فيه الأفكار.

يمكن أن يكون المصطلح ذات شمولية من حيث المبنى والمعنى، باشتراك حياة الناس من قصص، واحتكاك المخلوقات الأخرى، ويمكن أن ينطبق على التنوع تلك المحققات القصصية حسب البيئة، والجغرافية، والسياسة، والتنوع يمكن يقال تلك القصص الواقعية من تاريخ وتراث وحياة الناس والحيوان بتنوع حياتهم يتنوع الأسلوب والسرد القصصي (جمال، بلا: ٤٨٠).

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد السابع
٢٠٢٢م /١٤٤٣هـ

بعض دراسات حول مفردة التنوع

- التنوع اللفظي في السياق القرآني وأثره الدلالي، علاء شهدي مصطفى زويل(مجلة الآداب، ٢٠٢٠: ١٧-٥٧).
- التنوع الدلالي السياقي وظلالة الأسلوبية دراسة تحليلية لنماذج من المفردات القرآنية، فايز مدالله سلمان الذنبيات(المشكاة، ٢٠١٦: ٤٥١-٤٧٨)
- دلالة تنوع جموع التكسير في القرآن الكريم، عبدالكريم خالد التميمي(آداب البصرة، ٢٠٠٨: ٥٥-٧٠)
- تنوع صيغ الكلمات ذات الأصل اللغوي الواحد في القرآن الكريم لتنوع السياق والمعاني، عودة منيع القيسي(القيسي، ١٩٨٨: بلا)
- بعض صور التنوع (الشخصية، الثقافة، البيئة) في قصص الأطفال للأدب العربي والغربي دراسة تحليلية مقارنة، هيفاء عبد الله البسام (مجلة رسالة التربية وعلم النفس، ٢٠١٥: ٢٢١-٢٤١)
- علاقة المقام بكيفية التدرج النّصي في **تنوع** القص السردي القرآني (قصة النبي موسى ع في سورتي الشعراء والقصص أنموذجا)،عيشوش نعيمة(اللغة العربية وآدابها، بلا: ٣١٩-٣٣١)
- التنوع الحكائي في " رجل الشرفة " لعبد العزيز الفارسي، بسمة عروس(نزوى، ٢٠١٧: بلا)
- الفكاهة في القصة العراقية المعاصرة، دراسة في التنوع اللغوي والصورة السردية المتأخرة،د.عالية خليل إبراهيم(اشراقات تنموية، بلا: ٤٣١-٤٥٢)
- تنوع القص في مجموعة الجرس ناردين أبو نبعة، رائد محمد الحواري(الحوار المتمدن، ٢٠٢٢: بلا)
- التنوع الأدبي في (الكراز)قصص قصيرة حكايات ونصوص سعيد نفاع، رائد محمد الحواري(العرب الثقافية، ٢٠٢١: بلا)
- قياس خاصية **تنوع** المفردات في الأسلوب دراسة تطبيقية لنماذج من روايات الطيب صالح وغادة السمان ونجيب محفوظ، حامد صدقي عبد الله حسيني(أهل البيت، بلا: ٧٣-٩٢)
- دلالات التنوع والاختلاف في قصة حمار الوحش في الشعر الجاهلي والمخضرم في المفضليات، أيمن الأحمد(النجاح للأبحاث، ٢٠١٥: ٥١٣-٥٤٨)

تنوع الوصف في سرده لنوع واحد

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد السابع
٢٠٢٢م/١٤٤٣هـ

انفرد الجاحظ بسرده الوصفي حول نوع واحد ينتقل فيه الوصف إلى أنواع عدة، جاعل القارئ يلملم القصص في قصة واحدة، فاتح ذهنية المتلقي للمتعة في وصفه لذلك النوع، الذي يتشظى منه تنوع، مرتكزاً على جمالية الوصف لبيان المعنى الذي اعتنى به الجاحظ وصار مدرسة للآخرين(الحسن، ٢٠٠٥: ٤١) ومع أن النثر عانى من سلطة – إذ جاز التعبير – المأثور، أو الماضي والذي اعتبره بعض النقاد (وهدة الركاكة والغثاثة) (الدسوقي، ٢٠٠٧: ٣) التي لاحت الأدباء في العصر الحديث، إلا أن الجاحظ بقي عنوانا خاصا لان (ثقافة الجاحظ ثقافة واسعة منوعة تحيط بسائر ألوان الثقافات المختلفة التي مازجت الثقافة الإسلامية في عصره، فهو عالم من علماء الدين، ومتكلم من الطراز الأول للمتكلمين، وعالم يحيط باللغة وبيانها وآدابها إحاطة لا تقف عند غاية)(إسماعيل، خفاجة، ١٩٥٦: ٤١) هذه السعة في الأدب جعلته مما يليق في كتابته ما يصنعه الراوي وما يبدع فيه القاص في الوقت الحاضر ولاسيما في تنوعه في الوصف، إذا أخذنا بالاعتبار مصطلح الوصف بأنه (إنشاء يراد به إعطاء صورة ذهنية عن مشهد أو شخص أو إحساس أو زمان للقارئ او المستمع، وفي العمل الأدبي يخلق الوصف البيئة التي تجري فيها أحداث القصص) (وهبة، المهندس، ١٩٨٤: ٤٣٣)كما فعل الجاحظ في كتاب الحيوان حيث نجد في نفس القصة إيرادا كاملا للصورة الذهنية من حيث الوصف مشهدا وتشخيصا وإحساسا وزمنا من حيث يجعلك تستمع وتشاهد وتستمتع، فلو أخذنا ما افرده عن الضب في وصفه ووصف حياته وتنوع فيه بين قصة وذكر حتى أن هناك لعبة عن الضب راح يصفها (ولعبة الضب: أن يصوروا الضب في الأرض ثم يحول واحد من الفريقين وجهة، ثم يضع بعضهم يده على شيء من الضب، فيقول الذي يحول وجهه : أنف الضب، او عين الضب، او ذنب الضب، او كذا، وكذا من الضب على الولاء، حتى يفرغ ؛ فإن أخطأ ما وضع عليه يده رُكِبَ ورُكِب أصحابه، وان أصاب حوّل وجهه الذي كان وضع يده على الضب، ثم يصير هو السائل) (الجاحظ، ١٩٦٩: ١٤٦/٦) او ينقل لنا أسطورة عن الضب، في أجمل قصص العرب (وتقول العرب : خاصم الضبُّ الضفدعَ في الظمأ أيهما أصبر، وكان للضفدع ذنب، وكان الضب ممسوحا، فلما غلبها الضبُّ أخذ ذنبها، فخرجا في الكلأ، فصبرت الضفدع يوما ويوما، فنادت : يا ضبُ، وردا وردا ! فقال الضبُ:

أصبح قلبي صردا لا يشتهي ان يردا

إلا عردا عردا وصليانا بردا

فلما كان في اليوم الثالث نادت : يا ضبُ، وردا وردا ! قال : فلما لم يجبها بادرت إلى الماء، واتبعها الضب، فأخذ ذنبها) (الجاحظ، ١٩٦٩: ١٢٦/٢) وبهذه الأسطورة لم يترك للضب شيء حتى

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد السابع
٢٠٢٢م /١٤٤٣هـ

الأسطورة الشعبية، ولعلَّ الجاحظ درس سلوك الحيوان وتنوع في وصفه من النقل والمشاهدة، حتى في عمليه أكله وشربه واصطياده وحيل الحيوان في إنقاذ نفسه في الطبيعة وحصوله على طعامه وهذا جزء مما يدرسه اليوم العلماء (على جميع الحيوانات التي تتحرك بسرعة أن تواجه مشكلة اجتياز العوائق الطبيعية التي تصادفها أو أن تدور حولها، وعلى ذلك فقد كان اختبار العائق طريقة محببة لنفوس السيكولوجيين الذين يرغبون في اختيار القدرة على التعلم في مختلف أنواع الحيوان) (الحسيني، ٢٠٢٠: ٤٥)إذ نرى الجاحظ في وصفه القصصي يضع دراسة سيكولوجية حول الحيوان، كما في وصفه صيد الضبّ، حيث يذكره من جهات سلوك الحيوان بصياغة أدبية راقية (والضب تذلقه من جحره أمور، منها السيل، وربما صبوا في جحره قربة من ماء فأذلقوه) (الجاحظ، ١٩٦٩: ١٣٠/٢) فهو يدرس سلوكه ويذكره حتى السلوك المتناقلة عن قصص العرب حول الضب، في صيده، فإنّ الضبّ يأتي بالعقرب إلى جحره كي تلدغ من يمد يده إليه ليصطاده وهذا ما ذكره في باب احتيال الضب(وزعمت العرب، أن يعد العقرب في جحره، فإذا سمع صوت الحرش استنفرها، فألصقها بأصل عجب الذنب من تحت، وضم عليها ؛ فإذا أدخل الحرش يده ليقبض على أصل ذنبه لسعته العقرب) (الجاحظ، ١٩٦٩: ٥٨/٦) يصور لنا الجاحظ الضب عبر أسلوب متنوع في الوصف وخيال واسع من نقل الحقيقة من الواقع إلى المتلقي (فخيال الجاحظ خيال واقعي يمده بأدق التفصيلات) (الغزي، ٢٠١٣: ١٠٣) فمن تنوعه التي رسمها للضب مع متعة القصص المعلومة، ومع أن تناثر هذا التنوع لم يرضِ الجاحظ نفسه، لأنه يرى متانة ورصف المعلومة أن تكون غير متفرقة، وهذا ما يشعر به وذكره في مقدمة كلامه عن الضب(على أني أذم هذا الكتاب في الجملة، لأن الشواهد على كل شيء بعينه وقعت متفرقة غير مجتمعة، ولو قدرت على جمعها لكن ذلك ابلغ في تزكية الشاهد، وأنور للبرهان، وأملأ للنفس، وأمتع لها، بحسن الرصف، وأحمده ؛ لأنّ جملة الكتاب على حال مشتملة على جميع تلك الحجج ومحيطة بجميع تلك البرهانات، وإن وقع بعضه في مكان بعض، وتأخر متقدم، وتقدم متأخر) (الجاحظ، ١٩٦٩: ٣٩/٦) مع أنّ هذا التنوع لا يرضي الجاحظ فإنّه أعطى للكتاب قيمة أدبية راقية وممتعة من حيث انه يخرجك من طائلة الملل في وصفه وتنقله من بين الحكائية والوصف المتماثل، والجاحظ في كتابه الحيوان في وصفه يضع معايير دراسية أهداف سلوكية تنطبق على الإنسان نفسه، كما مر في الضب، و(الجاحظ ينتبه أيضا إلى لغة الأطفال، مثل واو او بمعنى " كلب " وماما بمعنى : شاه أو خروف) (فك، ١٩٨٠: ١٢٠) وهو الأديب النبيه والناقد الفذ لا ينسى ان القصاص يطرح له عناية في أدبه وحسن كلامه (وأما القصاص فقد كانت صناعتهم تقتضيهم العناية بقوة البيان وحسن الأداء، وكانوا

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد السابع
٢٠٢٢م /١٤٤٣هـ

ذوى فصاحة وبلاغة) (الجاحظ، بلا: ١٢/١) ويذكر من القصاص كثيرون(الجاحظ، بلا: ٣٦٧/١-٣٦٩) (٣)والجاحظ لم يترك وصف الحيوانات حتى في كتبه الأخرى وهو يذكر مقدمة كتابه (المحاسن والأضداد) حساده في التأليف ويصفهم (يهتاجون عند ذلك اهتياج الابل المغتلمة) (الهنداوي، ٢٠١٨: ٧) في وضع الوصف الحيواني للإنسان، وأعتقد أن تنوع الجاحظ في وصفه لكتاب الحيوان لم يكن من باب غير مدروس من قبله، لأن هذا التنوع هو الذي يجعل الكتاب كخرز المسبحة، يلمها الخيط الواحد ودليل ذلك أن الجاحظ يتباهى ويفتخر بمعرفة الحيوانات وأماكنهن وسلوكهن والغرائب فيهن وانه سبق أن ذكرها في كتب سبقت كتاب الحيوان (وخبرني عن الشق وعن واقواق، وعن النسناس، وعن دوالباي، وعن الكركدن، وعن عنقاء مغرب، وعن الكبريت الأحمر، وعن ثور الله في الأرض، وحدثني عن شعب رضوى، وعن جبال حسمي، ومتى ترى الماء الأسود والجو الأكلف، والطين الأزرق، وكيف ذلك النمر، وهل يظمأ ذلك الأسد ؟ وهل باض الخفاش ؟ وهل أمنت الحبارى ؟)(الهنداوي، ٢٠١٨: ٢٢) هذه العلمية الواسعة هي التي مكنت الجاحظ في سرده أن يجعل التنوع جمالا ويسحر القارئ فيه، وليس عيبا أو تشتتا في القصة،باتضاح ان الوصف عند الجاحظ يساير حبكة القصة، ويضيف لها خطا اخر للعقدة والشخصيات الحكائية ومفاتيح القصة من حيث الحكاية .

تنوع مفاتيح القصة الشارحة

من جمالية القصة مفتاح ما تبدأ به، والجاحظ في بداية كتابه أظهر تلك الجمالية بتنوع خاص انفرد به،لأنه الأديب العالم باللغة، لم يبدأ بالحكاية او القول، او كان، بل بدأ كتابه بقصة قتل لقمان لابنته صحر ،وزوجاته،وافتتحها بابنته، مع إن الابنة هي التي قتلت في الأخير وليس لها ذنب بما فعلت نساؤه أو أخته، إلا إن الجاحظ مدرك عاطفة الأبوية عند المجتمع، وبدأ بالتشويق لمعرفة الأسباب، وجاء بالواو ولما قبل الفعل، كان بإمكانه أن يبدأ بالفعل فقط، ولكن هذا استشعار على وجود شيء مهم يلوح فيه الجاحظ للقارئ مع انه بدأ بعدها بالتوضيح والقول الغامض الذي يثير تساؤلات المتلقي، لعل في عمله هذا يريد أن يصل أن قصص الحيوانات هي الرابط الرئيسي للقصص المنقولة من التراث، أو ما يلف حولها من خيال وخرافة، لربما لتوثيق القصة، وإيصال فكرة الجمال الأدبي ففي العصر الحديث (إن هناك شبه إجماع من جانب دارسي الفولكلور على أن قصص الحيوان الشارحة، هي المصدر الأم أو الأصل التي انحدرت الخرافات، وقصص الحيوان الشارحة هي تلك القصص التي فسر بمقتضاها الأقدمون الفرق بين حيوان وآخر، بين طبيعة ولون خصائص الذئب عن الحمل، ولون الحمامة الأبيض المخالف للون الغراب الأسود، كذلك التفسيرات الغيبية التي فسر بها البدائيون السبب

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد السابع
٢٠٢٢م /١٤٤٣هـ

او السر في بريق عيون القطط في الظلام، واستطالت أذنا الأرنب والحمار) (عبد الحكيم، ٢٠١٥: ١٣٢) فنجد أن بداية قصة ابنة لقمان هي مفتاح اكبر لكتاب الحيوان كاملا، وطرح مفسر آخر من خلال نقل القصة التي تندرج بإطار الابتعاد عن حثيثات الحقيقة، فإنَّ لقمان سأل ابنته (حين قتلها : ألست امرأة !) (الجاحظ، ١٩٦٩: ٢١/١)مع أن الجاحظ ترك علامة تعجب تصلك إلى أن الجملة تعجبية تثير استغراب لقمان من إنّ جميع النساء سواسية، فقد تنوع بهذا المفتاح وبدأ بعدها بسرد القصة وحمق أخت لقمان واضعا القصة – عقدة، شخصيات، حوار، حبكة – مابين تلك الكلمة والقتل مزين القصة بضرب الأمثال والأشعار وموسعها بالنقل المتقن ذات الرصانة والجمال، فقد سبق الجاحظ الكتاب الذين اعتنوا بالتراث لرفد ثقافة حاضر المؤلف، ولعل في ما يمكن قوله أن التراث اهتم به بالغرب من عهد متأخر جدا عن الجاحظ فقد(آمن مؤرخو القرن التاسع عشر بان تطور سلوكيات الأمة وعقلياتها يمكن تتبعه عن طريق الأدب، وأصبحت الكتب القديمة ينظر إليها بوصفها آثارا للثقافة التي انبثقت عنها) (بيت، ٢٠١٤: ٧٩) هذه المفاتيح المعرفية في القصة سبق الجاحظ العالم الغربي بقرون بان يضع القصة التراثية موضع تصديق، ولاسيما أن الأشعار التي رصعها بها أعطت لها توثيقا دراسيا حول التاريخ، في ذات الوقت أعطت الرابط الذي منح الجاحظ أن يذكرها وهي حيوانية أخته الحمقاء وإنسانية لقمان التي أثر فيها العمل الحيواني، من جهة أنها حمقاء، ومن جهة ما فعلته ما لا يقدر عليه عمل إنسان ففقد عقله وقتل حتى ابنته.

من المفاتيح الحكائية للجاحظ، القصة الثانية مباشرة بعد قصة ابنة لقمان وقبل أن يدخل في بيان اللغة والفصاحة والفرق بين الحيوان والإنسان يدرج لنا قصة (سنمار) وقتله، والطبيعة الحيوانية للإنسان في الغدر، وعدم رد الجميل، او احترام الجهد، وبدأ بمفتاح (وقال بعض العرب،في قتل بعض الملوك لسنمار الرومي؛ فانه لما علا) (الجاحظ، ١٩٦٩: ٢٣/١) فقد تدرج بالتراث الى قصص إسلامية مرتبطة مع سنمار، وأمثلة وإشعار وجعل القصة كلها مفتاحا لذلك وشارحة للون خاص بالمجتمع ومنوعا في ذلك إلى عدة قصص ارتبطت كلها بقصة سنمار منها (وجاء المسلمون يروي خلف عن سلف، وتابع عن سابق، وآخر عن أول، أنهم لم يختلفوا في عيب قول زياد " لآخذن الولي بالولي، والسمي بالسمي، والجار بالجار " ولم يختلفوا في لعن شاعرهم حيث يقول :

إذا أخذ البريء بغير ذنب تجنب ما يحاذره السقيمُ

قال : وقيل لعمرو بن عبيد : إنّ فلانا لما قدم رجلا ليضرب عنقه، فقيل له : انه مجنون ! فقال : لولا إن المجنون يلد عاقلا لخليت سبيله. قال : فقال عمرو : ما خلق الله النار إلا بالحق) (الجاحظ،

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد السابع
٢٠٢٢م /١٤٤٣هـ

١٩٦٩: ٢٤/١)فوضع تنوعا خاصا يهدف إلى القصة وكأن المسار التراثي شارح للون الصورة المقدمة ولم يؤثر فيها حتى تعاليم الإسلام، كما أنه أبدع في تغير مفاتيح القصص القصيرة المرتبطة، مع إنّ الحوار قائم معها وكل قصة له عقدة خاصة ترتبط بمفتاحية قصة سنمار، فالمجنون لا يستحق القتل إلا أن القاتل تحجج بأنه سيولد له ولد عاقلا، كما تحجج الملك على سنمار انه يستطيع هدم ما بناه، لكنه لم يهدمه، والمجنون لم يلد، وكذلك زياد ابن أبيه في اخذ الناس وظلمهم الولي بالولي والجار بالجار وتعداه حتى السمي بالسمي فكأن مفتاحية سنمار وعقدة قصته التي هي تراث كان يجب الاتعاظ بها وعدم تكرارها لأنها سمه وطبع حيواني نجد أن الإنسان لا يكررها بل يجعلها هدفا ساميا لحكمه على ظلم الآخرين، فالجاحظ يرى في قصصه القارئ ولا يرى النقل او الأسلوب فقط ويجعل مفاتيحه تثير ذهنية القارئ (لأن الظاهرة الأدبية ليست مستوية في علاقة المؤلف بالنص، وإنما بعلاقة النص بالقاري، وهي ليست النص وحده بل القارئ أيضا وردة فعله) (مكرسي، ٢٠١٠: بلا) لا ينفك الجاحظ من المتلقي حتى يطعمه بقصة بين الخيال والتراث وهو ويضع فيها الفكاهة والحجاج فيما يلقي الحجة على محاوره وذلك في تنوعه عن ذكر الفيل والجاحظ يذكر تلك القصة (فسمعني غانم العبد يوما وانا أحكي هذا الكلام، وكان من أموق الناس وأرقعهم رقاعة، مع تيه شديد، وعجب ورضا عن نفسه،وسخط على الناس . فمن حمقه انه هنديٌّ وهو متعصب على الفيل، فقال لي : ما تقول الهند في الحوت الذي يحمل الأرض، أليس أعم نفعا وأعلى أمرا ؟ فقلت : يا هالك، أن مدار هذا الكلام إنما يقع على الأقسام الأربعة من بين جميع المذكورة في الماء وفي الهواء، كالذي ينساح من أجناس الحيات والديدان، وكالذي يمشي من الدواب والناس، وكالذي يطير من أحرار الطير وبغاثها وخشاشها وهمجها وكالذي يعوم كالسبك وكل ما يعايش السمك.فإما الحوت الذي تكون الأرض على ظهره فقد علمنا ان في الملائكة من هو أعظم من هذا الحوت مرارا، ولولا مكان من قد حضرنا لكان ممن لا يستأهل الجواب، وهذا مقدار معرفته) (الجاحظ، ١٩٦٩: ٢٤/١) لقد مزج الجاحظ ونوع في مفاتيحه بقصته الشارحة التراث، والخرافة، والفكاهة، وصور للمتلقي عن خصائص الفيل ومكانته الشرفية التي استهجنها الهندي، وكأنه يعيب على الجاحظ معرفة موطنه، ويكون الرد بتنوع آخر يفضي إلى مجالات يفتح السارد فيه ذهن المتلقي إلى أنواع أخرى مرتبطة بالقصة .

تنوّع السرد القصصي للأمثال

لم يهمل الجاحظ هذا الصنف القصير من القول، وفيه باع في ذلك فهو يرى الأدب العربي (أول هذه الآداب وأرقاها، ولا يوجد أدب آخر غيره) (حسين، ٢٠١٣: ٢١) ومن يفتخر يجمع كل ما فيها

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد السابع
٢٠٢٢م/١٤٤٣هـ

جميل، ويبدع فيه مع أن الجاحظ (لا يتكلف في اختيار ألفاظه بل يكتب كما يتكلم، فجاءت كلماته نمطا واحدا من البلاغة والفصاحة) (الغزي، ٢٠١٣: ١٢٣) فهو لا يجمع المثل بل يسرد فيه القصص، ويفسر ويضع لكل نوع أمثالا، فيضيف للنوع أنواعا وينوع بسرده للأمثال بين حيوان واخر في مثل قوله عن الكلب (ومن أمثالهم في الشؤم قولهم " على أهلها دلت براقش " وبراقش : كلبة قوم نبحت على جيش مروا ليلا وهم لا يشعرون بالحي، فاستباحوهم واستدلوا على مواضعهم بنباحها قال الشاعر:

ألم تر أن سيد آل ثور نُباتة عضّهُ كلبٌ فماتا) (الجاحظ، ١٩٦٩: ٢٦٠/١) فالجاحظ يعطي للمثل شرحا ويضيف إليه القصة وينوع المثل بالأحجية (ومما يحاجي به الناس بعضهم بعضا أن يقولوا : أتعرفون شيئا إذا قام كان أقصر منه إذا قعد ؟ يريدون الكلب ؛ لان الكلب قعوده إقعاؤه، وهو إذا أقعى كان ارفع لسمكه وارفع في الهواء طولا منه إذا قام) (الجاحظ، ١٩٦٩: ٢١٢/٢) ومما يعطيه لنا ذلك التفسير والتنقل، والحجاج ولاسيما إذا كانت المسألة تتعلق في التفسير ومنه تفسيره [[طلعها كأنه رؤوس الشيطان]] (الصافات : ٦٥) يطرح آراء ويأخذ بالأمثال ليفسر ويضع حجيته ويسرد في قصصه ويأتي بأمثلة (وكما يقولون " لهو أقبح من السحر " ... وكذلك أيضا ربما قالوا : " ما فلان إلا شيطان " على معنى الشهامة والنفاذ وأشباه ذلك) (الجاحظ، ١٩٦٩: ٢١٣/٦)ويسرد الجاحظ في كل مواضعه عن الحيوان فنادرا ما لم يأت بمثل كما هو الحال عن حيوان التوبير وهو يفسر ما هو وينقل عن العرب مثلا فيه ويفسره (وفي أمثالهم " لانت أغنى من التفة عن الرفة " وهو التبن الذي تأكله الدواب والماشية من جميع البهائم، والتفة سبع خالص لا يأكل إلا اللحم) (الجاحظ، ١٩٦٩: ٣٥٢) يسرد لنا الجاحظ أنّ السبع الصغير يتعلم بصيد الصغار التي لا تقدر عليه الكلاب، ومنها حيوان التوبير.

التنوّع المكاني والزماني في السرد

يسرد لنا الجاحظ تنوعا مكانيا في نفس القصة مع الابتعاد بالأمكنة، كما هو العراق والهند في قصة الذباب (وقال لي المكي مرة : إنّما عمر الذبان أربعون يوما . قلت : هكذا جاء في الأثر . وكنا يومئذ بواسط في أيام العسكر، وليس بعد ارض الهند أكثر ذبابا من واسط، و لربما رأيت الحائط وكأن عليه مسحا شديد السواد من كثرة ما عليه من الذبان . فقلت للمكي : أحسب الذبان يموت في كل أربعين يوما، وإن شئت ففي أكثر، وان شئت ففي أقل، ونحن كما ترى ندوسها بأرجلنا، ونحن هاهنا مقيمون من أكثر من أربعين يوما، بل منذ أشهر، وما رأينا ذبابا واحدا ميتا . فلو كان الأمر على ذلك لرأينا الموتى كما رأينا الأحياء. قال: إن الذبابة إذا أرادت أن تموت ذهبت إلى بعض الخربات . قلت : فانا قد دخلنا كل خربة في الدنيا ما رأينا ذبابا ميتا) (الجاحظ، ١٩٦٩: ٣٢٥/٣) نرى هنا في هذه

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد السابع
٢٠٢٢م/١٤٤٣هـ

القصة قد مزج الجاحظ في سرده المكان : واسط، الهند، الخربة، الدار، والزمان شهر وأيام ويوم، وهو بذلك يضع حدودا بين (النص والسياق، وبين القصة والتفسير، وبين الكتابة والقراءة) (مارتن، ١٩٩٨: ٢٣٠) ففي سرده يصيغ تنوعا مكانيا مع ذات الحيوان ويصيغ زمنا مع ذكر القصة فان يحاول تفنيد شيء منها او إثباته وهنا في حواره يضع صاحبه ضمن إطار التجربة بين المكان والزمان في موت الذباب في أربعين يوما .

ويذكر أحيانا الاختلاف في المكان على انه في تلاصق او إن المنطقة في مناخ واحد كما هو في البصرة حيث يذكر في سرده(ومن العجب ان بين البصرة وواسط شطرين، فالشطر الذي يلي الطف وباب طنج يبيت أهله في عافية وليس عندهم من البعوض ما يذكر والشطر الذي يلي زقاق الهفة لاينام أهله من البعوض، فلو كان هذا ببلاد الشام او بلاد مصر لأدعو الطلسم) (الجاحظ، ١٩٦٩: ٣٩٩/٥) ومن جميل سرد لنا الجاحظ قصة النون والضب (وقال عبد الأعلى القاص: يقال في المثل : إن النون قال للضب حين رأى إنسانا في الأرض : إني قد رأيت عجبا . قال : وما هو؟ قال رأيت خلقا يمشي على رجليه، ويتناول الطعام بيديه، فيهوي به الى فيه. قال : إن كان ما تقول حقا فإنه سيخرجني من قعر البحر، وينزلك من وكرك من رأس الجبل) (الجاحظ، ١٩٦٩: ٣٩٩/٥).

تنوّع التشابه والاختلاف في السرد القصصي

يمكن في إيراد التشابه او الاختلاف في مصطلح المقارنة أحيانا،أن نجد الجاحظ يقارن بين حيوان وآخر بنقاط تشابه أو اختلاف حتى إنّه ذكر التشابه في الكلب (إمّا أن يشبه الإنسان، وإما أن يشبه رؤساء السباع ودواهي الحشرات، وكلما كانت هذه المعاني فيه أكثر كان قدره اكبر) (الجاحظ، ١٩٦٩: ٢١٥/٢) ومن القصص الجميلة التي يرويها الجاحظ الأفعى والناقة في عنوان أثر المرضع في الرضيع يذكر (ومن عجيب سم الأفاعي ما اخبرني به بعض من يخبر بشأن الأفاعي، قال: كنت بالبادية ورأيت ناقة ترتع، وفصيلها يرتضع من أخلافها، اذ نهشت الناقة على مشافرها أفعى، فبقيت واقفة سادرة، والفصيل يرتضع، فبينما هو يرتضع إذ خر ميتا، فكان موته قبل موت أمه من العجب وكان مرور السم في تلك الساعة القصيرة أعجب، وكان ما صار من فضول سمها في لبن الضرع حتى قتل الفصيل قبل أمه عجبا آخر) (الجاحظ، ١٩٦٩: ٣٦٦/٥) ومن التشبيه بالكلب قصة جواب صبي (وزعم الهيثم بن عدي قال : كان رجل يسمى كلباً، وكان له بُني يلعب في الطريق، فقال له رجل : ابن من ؟ فقال : ابن وَوْوَوْوَوْ) (الجاحظ، ١٩٦٩: ١٦٨/٢) وهذه القصة هي تفيد النحاة لما لها من نقل عن الأصوات، والتي عبر عنها بعض الدارسين بان اللغة العربية ولاسيما الصوت منها قد

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد السابع
٢٠٢٢م /١٤٤٣هـ

اندثرت، ولم ينقل إلينا من التراث شيء يخص تلك الإشارة أو الأصوات أو تعابير الوجه،فقد تنوع الجاحظ بقصصه التشابه والاختلاف حتى في لغة الصوت ولعل تحريك الأول في حرف الواو وسكون الواو الثاني تقليد تشابهي بين ما يقدر عليه الإنسان من تشابه صوت الحيوانات، وقد ذكر من المشابهة كثير مثل مشابهة هداية الحمام لهداية الرخم (الجاحظ، ١٩٦٩: ٣/٢٥٨-٢٥٩) ومنه تشبيه مشي الشيخ بمشي الرئال(الجاحظ، ١٩٦٩: ٤/٣٥٦) والتشبيه بالقنفذ(الجاحظ، ١٩٦٩: ١٦٦) وشبه الحيات بالسمك(٧)(الجاحظ، ١٩٦٩: ١٢٨) والاشتباه بالأصوات(الجاحظ، ١٩٦٩: ٦/٢٥٥) ومما ذكر من الاختلاف (عداوة الشيطان للإنسان، والإنسان للشيطان، وهما عداوتان مختلفتان – وعداوة الله للكافر، وعداوة الكافر لله، وهاتان العداوتان غيرتانك، وهما في انفسهما مختلفان، وهما والتي قبلهما مخالفة لعداوة العقرب للإنسان، وعداوة العقرب مخالفة لعداوة الحية وعداوة الإنسان مخالفة لعداوة كل منهما للإنسان، وعداوة الذئب والأسد والإنسان خلاف عداوة العقرب والحية، وعداوة النمر للأسد والأسد للنمر مخالفة لجميع ما وصفنا، ومسألة الببر للأسد غير مسالمة الخنفساء والعقرب، وشأن الحيات والوزغ خلاف شأن الخنافس والعقارب، وعداوة الإنسان للإنسان خلاف عداوة ذلك كله، وابن عرس اشد عداوة للجرذان من السنور، وعداوة البعير للبعير، والبرذون للبرذون، والحمار للحمار شكل واحد، وعداوة الذئب للذئب خلاف ذلك، والشاة اشد فرقا منه منها من الأسد والنمر والببر، وهي أقوى عليها من الذئب، وفرق الدجاج من ابن آوى أشد من فرقها من الثعلب، والحمام اشد فرقا من الشاهين منه من الصقر والبازي) (الجاحظ، ١٩٦٩: ٧/٩٦) وهذا كله يورده الجاحظ بقصص يضع فيها تنوع الاختلاف والتشابه في مقارنة رائعة في سردة، وهو يضع قصص التراث،او ما سمع من أمم أخرى ولاسيما ان عصره مملوء بالموالي والعبيد التي تجلب من بلدان في الفتوحات، وهذا ما لمسناه منه في ذكر الهندي والأفريقي وأنواع الطيور التي غير موجودة في العراق او الجزيرة، او بعض الحيوانات التي لم يتم مشاهدتها، لكن بالسماع إلا أن الجاحظ في نقله السماعي يطلع على أكثر من مصدر مما جعله غير خاضع للأخطاء العلمية الشنيعة في نقل الوصف، والتراث يذكره ناقلا للمتعة كما هي بعض الخرافات وفيها ينقدها ويفندها، وفي بعضها يتركها للقارئ مع تلميح على رأيه .

الخاتمة

لم يعد السارد في قصصه أن يبيح لنفسه نوعا واحد من التخييل القصصي ، هذه الإباحة لم تكن بمقدور أي أديب او راوٍ باستطاعته أن يصيغ تلك المفردات وان لا يفلت من ضحالة التعبير ، او ضيق أفق الخيال ، إلا أن الجاحظ يظهر خياله أوسع ، وخزينه من الفصاحة والبيان واللغة ما لم

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد السابع
٢٠٢٢م/١٤٤٣هـ

يحصل عليه غيره وهو ينوع الآلاف من القصص في كتابه (الحيوان) بارزا علوم التاريخ والاجتماع والعلم والأدب فيه ، شاملا له الفائدة والمتعة ، ليس من السهل أن تجذب قارئ لكتابك ، فإنها بحد ذاتها تخلق اضطرابا لدى كثير من ذو الأقلام ، إلا أن الجاحظ أثبت أنه جدير بتلك الراية التي تلوح في سماء الأدب .

الجميل في السرد هو ذلك التنوع الذي صاغه الجاحظ ، ولعل جوهرة الكتاب – ولا أظنني أبالغ في هذا – هو ما فيه من تنوع يبعدك عن الملل ويجذبك نحو القصص والأمثال والربط ، بسردية اختلفت أيضا بتنوعها ، فهي خليط من الأنا كما يفعلها كثير من الأدباء في عصرنا الحالي ، ومزيج من أسلوب الحكواتي ، ومزيج من الحجاج الذي بات ديدن الكتاب ، ويحتاج لوحده دراسه خاصة منفرده فيه.

لم يترك الجاحظ نوعا من أنواع الحيوانات إلا وأشبعه قصصا من التراث ، والخرافة والواقع ، وأضاف إليه رأيه بين واضح وجلي ، وغامق ، او بتلميح من حيث وأنت تقرأ تلك القصة ترى بناءها الفني من حوار وشخصيات وحبكة ، وتشعر بالهدف الذي يروم إيصاله الجاحظ إلى المتلقي الذي يمكن أن نقول يترك فيه عصفا للذهن يجعله يكمل الكتاب ويعتز في إيصال قراءة لما يترك له من تساؤلات حول نهاية هذا النوع الذي تشظى إلى أنواع.

التنوع هو الذي أحيا السرد ؟ أم العكس ؟ لعل ما افرده لنا مع إننا وضعنا ما هو مختصر من القصص بعيدين عن القصص الطوال ، أن الجاحظ قد سبق غيره في إتيان القصص ومنها القصص الشارحة من مزج التراث وإحياؤه على الطريقة التي تحدد مسار لا استهجان فيه ، من حيث الخرافة لا يمكن أن تضع الأدب في حضيض ، وتخرجه من دائرته الفنية ، ويمكن أن نقول انه نقل لنا ما كاد ان يموت ولا نعلمه عن العرب بما يدور في ذهنيتهم ، مع حفاظه على مستقبل التراث في نقله ، وبأسلوبه ، أسلوب الأديب الذي وضع حجر الأساس للبيان .

لسحر كتاب الحيوان من قصص قد تنشر في الوقت الحاضر على صفحات التواصل الاجتماعي في العالم الافتراضي ، فنراه يجلب لنا صورة فنية عن القصة وما يكتبه المعاصرون ، في تنوع عن الإنسان والحيوان والمكان والزمان ، في وقت يبتعد عصره عنا نجد ما يميل المتلقي لقراءة ، بل يمكن لدخولها إلى حياة التمثيل التلفزيوني أو المسرحي مما يوجد فيه من صورة حية من خيال خصب صاغها الجاحظ ببراعة ليفتن بها قرّاءه ويسحر بها متلقيه بأسلوب السرد :

. تنوع القصص وانتقال السارد بالعقدة وتغيرها .

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد السابع
٢٠٢٢م /١٤٤٣هـ

. أسلوب الحكاية والحبكة التي جعلت كتابه مع أنه قديم في عصر البلاغة وأسلوب السجع ، نراه كأنه كتب بلغة هذا العصر .

. مفاتيح القصص عند الجاحظ متنوعة ، فهو يفتح قصته بشيء ثم يبدأ القصة الثانية بشيء مختلف .

. الصور المتخيلة والعلمية فالجاحظ رسم الاثنين معاً.

. ظهور القصص الشارحة وهو تميز بين حيوان وآخر .

. لا يخلو السارد من تكرار إلا أنه صاغه بتنوع قصصي آخر .

. اهتمام الجاحظ بالزمان والمكان .

. الأنا او المونولوج الداخلي أبدع فيه الجاحظ ليترك بصمته في القصص

. توظيف الأسطورة والخرافة والحكايات الشعبية وخلق تنوعا فيها بين حيوان وآخر وتنوعا في ذات الحيوان.

. لم يختصر الجاحظ الكتاب عن الحيوان فقط فقد ربطه بالإنسان في كل تفاصيله من دون أن يخرج عن جمالية القصص وحبكته لتلك القصص .

مع أن الجاحظ ألف كتابه كمعلومات خاصة – للفائدة – إلا انه أردفه أسلوبا قصصيا رائعا يشد القارئ إليه مع فائدة المعلومات ولعل حذقه بالقصص وقوة فطنته ، وفصاحته ، ودرايته باللغة العربية وأساليبها هي التي جعلت الكتاب عبر هذه السنين لا ينظر إليه تراثا فقط بل متنوعا من القصص الممتعة وذات الفائدة اللغوية والأسلوبية ، والجمالية ،والبلاغية .

المصادر

1. الأدب الإنكليزي ، جوناثان بيت ،ترجمة سهى الشامي ، مراجعة هبة عبد المولى ،مؤسسة الهنداوي ،ط١ ، القاهرة . ٢٠١٤
2. البيان والتبين ، ابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت . بلا
3. تاريخ آداب اللغة العربية ، جرجي زيدان ، مؤسسة الهنداوي ، القاهرة – ٢٠١٣
4. تاريخ التمدن الإسلامي ، جرجي زيدان ،مؤسسة الهندواي ، القاهرة – ٢٠١٢
5. تنوع صيغ الكلمات ذات الأصل اللغوي الواحد في القرآن الكريم لتنوع السياق والمعاني، عودة منيع القيسي،رسالة دكتوراه ، كلية الدراسات العليا ، قسم اللغة العربية وآدابها ، الجامعة الأردنية ، عمان – ١٩٨٨
6. الحيوان ، ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون،دار إحياء التراث العربي ، ط٣ ، بيروت – ١٩٦٩.

7. رسائل الجاحظ دراسة في شعرية النثر العربي ، محمود ناظم موات بدر الغزي ، رسالة دكتوراه ، جامعة البصرة ، كلية التربية للعلوم الإنسانية ، قسم اللغة العربية، البصرة . ٢٠١٣.
8. سلوك الحيوان ، أحمد حماد الحسيني ، مؤسسة الهنداوي ، القاهرة – ٢٠٢٠
9. العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب ، يوهان فك ،ترجمة رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٨٠ .
10. المحاسن والأضداد ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، مؤسسة الهنداوي ، المملكة المتحدة . ١٣٣٠ هـ
11. مدخل لدراسة الفلكلور والأساطير العربية ،شوقي عبد الحكيم ، مؤسسة الهنداوي ، القاهرة . ٢٠١٥.
12. المرايا المقعرة ، عبد العزيز حمودة ، عالم المعرفة ، الكويت – ٢٠٠١.
13. معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، مجدي وهبه ، وكامل المهندس،مكتبة لبنان ، ط٢ ، لبنان . ١٩٨٤.
14. من بلاغة العرب، عبد الغني إسماعيل، ومحمد عبد المنعم خفاجة ، المطبعة المنيرية ، ط١ ، القاهرة . ١٩٥٦.
15. من حديث الشعر والنثر ، طه حسين ، مؤسسة الهنداوي ، القاهرة . ٢٠١٣
16. نشأة النثر الحديث وتطوره ، عمر الدسوقي ، دار الفكر العربي ، القاهرة – ٠٠٧
17. النثر العربي في نماذجه وتطوره لعصري النهضة والحديث، علي شلق ، دار القلم ، ط٢ ، بيروت – ١٩٧٤
18. نظريات السرد الحديثة ، والأس مارتن ، ترجمة حياة جاسم محمد ، المجلس الأعلى للثقافة الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، دمشق . ١٩٩٨
19. الوحدة والتنوع في الأدب العربي المعاصر ، عبد العزيز شرف ، دار الجيل ، ط١ ، بيروت – ١٩٩١

الصحف والمجلات

20. جريدة النهار ، في ١٧ / ٥ / ٢٠٢١.
21. مجلة الآداب ،مجلد ١ ، عدد ٥٦ ، مصر . ٢٠٢٠ .
22. مجلة آداب البصرة ، العدد ٤٧ ، العراق . ٢٠٠٨ .
23. مجلة اشراقات تنموية ، العدد ٢٢ .
24. مجلة أهل البيت عليهم السلام ، العدد ٨.
25. مجلة جامعة تشرين،سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية،مجلد ٢٧عدد ٢ لسنة ٢٠٠٥.
26. مجلة جامعة النجاح للأبحاث(العلوم الإنسانية) مجلد ٣٩ عدد٣، ٢٠١٥.
27. مجلة الحوار المتمدن ، العدد ٧١٨٢ في ٦ / ٣ / ٢٠٢٢.
28. مجلة دار العرب الثقافية ، ٣١ أغسطس ٢٠٢١.
29. مجلة رسالة التربية وعلم النفس ، عدد ٤٩ ، يونيو ، السعودية – ٢٠١٥.
30. مجلة علوم اللغة العربية وآدابها ، مجلد ١٠ ، عدد ١.
31. مجلة القصة السورية ، ٥ / ٣ / ٢٠٢٠.

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد السابع
٢٠٢٢م /١٤٤٣هـ

32.مجلة المشكاة للعلوم الإنسانية والاجتماعية ، مجلد ٣ ، عدد٢ ، الأردن . ٢٠١٦.
33.مجلة نزوى ، تصدر عن وزارة الإعلام مسقط ، في ٤ يونيو ٢٠١٧.

مجلة العلوم الاساسية
للعلوم التربوية والنفسية وطرائق التدريس للعلوم الاساسية